التصوف العراقي
ومدارسه وأثره على المشرق

د. عمر عبد الله عبد العزيز
الجامعة العراقية / كلية التربية - قسم التاريخ

المستخلص:

يعنى هذا البحث بدراسة موضوع مهم يؤرخ لحقبة من تاريخ العراق المشرق كان لها الأثر الكبير في تاريخ الأمة الإسلامية من حيث انتشار الإسلام واتساع رقعته ، حيث يسلط البحث الضوء على نشأة التصوف في العراق ، ويعرض لمدارس العراق الصوفية المتعددة كالمدرسة البصرية والكوفية والبغدادية ، ويظهر البحث أثر هذه المدارس على بلاد المشرق العربي والإسلامي من حيث انتشار الإسلام والحفاظ على هوية المسلمين على مدى العصور .

الكلمات المفتاحية: التصوف ، العراق ، المدارس ، الإسلام .

Iraqi Sufism and its schools and its impact on the Levant

Dr.. Omar Abdullah Abdul Aziz

History Department, College of Education, Iraqi University

Abstract

This research means studying an important topic dating to an era in the history of the bright Iraq that had a great impact on the history of the Islamic nation in terms of the spread of Islam and its expansion, as the research sheds light on the origins of Sufism in Iraq, and presents various Sufi schools in Iraq, such as the visual school, Kufia and Baghdad. Research The impact of these schools on the Arab and Islamic countries of the East in terms of the spread of Islam and the preservation of the identity of Muslims throughout the ages.

Key words: Sufism, Iraq, schools, Islam.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الخلائق والمرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، ورضي الله عن الصحابة أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الحشر واليقين من العلماء والاولياء والصالحين . وبعد ..

فقد كان العراق ولم يزل ينبوع علم ومعرفة يستمد منه العالم قوته في التحقيق والتدقيق في كافة العلوم والمعارف ، ومن هذه العلوم علم التصوف ، الذي اخترته ليكون عنوان بحثنا الموسوم «**مدارس التصوف العراقي واثرها على المشرق**» .

وعلى الرغم من المحن والصعوبات التي جرت في العراق في السنوات الاخيرة ، فلايزال الناس يتوافدون عليه ، ويضربون ارضه طولاً وعرضاً للوقوف والتعرف على شخوص اهل التصوف ولمشاهدة مراقد اعلام التصوف التي تعود بهم الجذور الى مدارس التصوف في بلاد الرافدين ، كالمدرسة البصرية ، والمدرسة الكوفية ، والمدرسة البغدادية ، فضلاً عن وجود طلاب علم وباحثين يتوافدون ليأخذوا العلم على يد شيوخ وعلماء العراق ، وهذا مؤشر على مدى التأثير الذي اثرته المدارس الصوفية في العراق على بلاد المشرق االعربي والاسلامي ، وبالرغم ان بينهم وبين الحسن البصري زعيم المدرسة البصرية وما وضعه من شروط وتعاليم اكثر من الف سنة، فلم يزل اهل التصوف في عصرنا يتواصلون روحيا معه ويلتزمون هذه التعاليم وينتهجون منهجه وكأن العراق ينشد بلسان الحال قول المتنبي :

ودع كَـلَ صـوتٍ فـأنـني
انا الصادح المحكي وغيري الصدى

فطوبى لبغداد لهذا الفضل وهذه المزية ، ومن المعروف ان التصوف الإسلامي الحقيقي مبناه على الكتاب والسنة ويستمد أحواله من الرسول ﷺ وإن تعرجت بعض تعاليم التصوف وتأثرت بعض فروعه ألوانا عدة واتجهت باتجاهات مختلفة وكل هذا بسبب الموروث الجاهلي للداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس ويهود ومسحيين ولا سيما في عصر الترجمة الذي شجع عليه المأمون ومن بعده من الخلفاء العباسيين فترجم المسلمون كتباً كثيرة من التراث الهندي واليوناني والفارسي فتأثر المجتمع الاسلامي ببعض النزعات الفلسفية الحديثة أو القديمة وببعض المذاهب الهندية والفارسية كنظرية الحلول والاتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذلك.

ومع ذلك ظل التصوف الإسلامي الصميم وباعتباره التطبيق العملي للإسلام ملتزما بمصدرية الكتاب والسنة قائما على حاله في صدور رجاله وفي كتبه المنهجية كتواليف الحسن البصري والقشيري وأبي طالب المكي والغزالي وغيرهم من اعلام التصوف الحقيقي.

هذا وقد قسمت موضوع دراستي على مبحثين **الاول** : كان في مفهوم التصوف لغة واصطلاحا واشتقاقاً فضلاً عن اهميته ومفرداته ونشأته اما **الثاني** فتناولت فيه مدرس العراق الصوفية البصرية والكوفية والبغدادية واثرها على المشرق العربي والاسلامي .

والله أسأل أن ينفعني به ، وسائر المسلمين ، وأن يهدينا إلى التمسك بسنة نبيه ﷺ ، وخدمتها والدفاع عنها ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

المبحث الاول
مفهوم التصوف

المطلب الاول: تعريف التصوف لغة واصطلاحاً

أ- لغـــة :

تشتق كلمة التصوف من فعل صوّف جعله متصوفا، وتصوّف صار صوفيا، أي تخلق بأخلاق الصوفية. والصوفية فئة من المتعبدين، واحدهم الصوفي.[1]

وقال ابن خلدون في كتابه (**المقدمة**): « ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس ، والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفا أومن الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي. قال: وكذلك من الصوف... قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف »[2].

ب- اصطلاحاً :

ومن ناحية تعريف التصوف اصطلاحا، قد وردت تعاريف عديدة عن مفهوم التصوف في الاسلام وكلها تتوجه لصدق التوبة الى الله تعالى وانما هي وجوه فيه[3] ، وقد ذكرت معظم هذه الوجوه في كتاب (**حلية الاولياء**) حيث ألحق الحافظ ابو نعيم رحمه الله بغالب اهل حليته عند تحليته كل شخص قولاً من اقواله يناسب حاله قائلاً وقيل ان التصوف كذا ، فأشعر ان كل من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف وان تصوف كل احد صدق توجهه[4] .

وبدا لي قبل ان اورد بعض التعاريف للتصوف وما ذكره العلماء في تعريفه اتحف هذا بنص من النصوص التي ذكرها ابن خلدون في مقدمته عن التصوف فقد قال في باب التصوف : « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة و كبارها من الصحابة و التابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و مال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة و كان ذلك عاما في الصحابة و السلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني و ما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. و قال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربة ولا قياس. والظاهر أنه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه. قلت: و الأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من فخالفه الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد و الانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بمآخذ مدركة لهم وذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر

(1) انظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار الشرق، بيروت، لبنان، الطبعة38، سنة 2000م، ص:441.

(2) ابن خلدون ، محمد بن عبدالرحمن (ت808هـ) ، المقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص:467-468

(3) البرنسي، احمد بن عيسى ، قواعد التصوف على وجه مجمع بين الشريعة والحقيق ، تح : ابراهيم اليعقوبي ، ط1، (مصر ، 1968) ، ص6 .

(4) للمزيد من التفاصيل حول اوجه التصوف لابد من معاينة كتاب الاصفهاني ، ابو نعيم احمد بن عبدالله (ت430هـ) ، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، دار الكتاب ، (بيروت ، لبنان ، بلا.ت) .

الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان: إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والفن والشك والوهم وإدراك للأحوال القائمة من الفرح و الحزن و القبض و البسط و الرضى و الغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك. فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات و إرادات و أحوال و هي التي يميز بها الإنسان. و بعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة و الفرح و الحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به و النشاط عن الحمام و الكسل عن الإعياء. و كذلك المريد في مجاهدته و عبادته لابد و أن ينشأ له عن في مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة. و تلك الحال إما أن تكون نوع عبادة فترسخ و تصير مقاما للمريد و إما أن لا تكون عبادة و إنما تكون صفة حاصلة للنفس »[1] .

وقدمت هذا التعريف كون ابن خلدون من غير الصوفية، يدرك الصلة الوثيقة بين التصوف ومصدره الإسلامي.

ويبدو ان لكل صوفي ظروفه الخاصة والتي تؤثر في سلوكه واتجاهاته وتصوراته والخطة التي رسمها لنفسه للوصول الى غايته ولذلك تعددت تعاريفهم للتصوف في ذلك قول معروف الكرخي ان التصوف : «هو الاخذ بالحقائق واليأس مما في ايدي الخلائق» [2] ، ولعل هذا التعريف من اجود التعاريف التي عرف به التصوف لذلك آثرت ان اضعه اول الاقوال . ووضع الجرجاني عدة تعريفات حول التصوف وهذا ما نصه : « الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال ، وقيل مذهب كله جد فلا يخلطونه بشيء من الهزل وقيل تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة واتباع رسول الله ﷺ في الشريعة ، وقيل ترك الاختيار ، وقيل بذل المجهود والأنس بالمعبود ، وقيل حفظ حواسك من مراعاة أنفاسك وقيل الإعراض من الاعتراض، وقيل هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله التفرغ عن الدنيا»[3] .

وقال الجنيد البغدادي التصوف : « ان تكون مع الله « [4] ، ويقول ابو الحسن النوري : « ليس التصوف رسما ولا علماً ولكنه خلق « ، ويعلل ذلك بقوله : « لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعلم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع ان تقبل على الله بعلم او رسم»[5]، وعرفه الغزالي فقال : « هو قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله »[6].

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ص150 .

(2) الطوسي، لابي نصر السراج (ت378هـ) ، اللمع ، تحقيق وتقديم ، د. عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، مطبعة السعادة ، مصر 1380هـ / 1960م ، ص221.

(3) الجرجاني، الشريف علي بن محمد (ت618هـ) ، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، 1416هـ) ، ص102 .

(4) ابن الملقن، سراج الدين ابي حفص عمر بن علي (ت804هـ) ، طبقات الاولياء ، تح: نور الدين شريبة، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، 1393هـ / 1973م، ص308 ؛ السلمي ، عبد الرحمن ، طبقات الصوفية، تح: نور الدين شريبة ، دار الكتاب النفيس ، ط2 ، 1406هـ / 1986م) ، ص500 .

(5) الاصفهاني ، حلية الاولياء ،4/ 310 .

(6) الغزالي، الامام ابي حامد (ت505هـ) ، المنقذ من الضلال ، مطبعة حسان ، القاهرة ، بلا. ت ، ص131 .

وقيل ان: «التصوف علم يبحث فيه عن الذات الأحدية، وأسمائه وصفاته من حيث أنها موصلة لكل من مظاهرها ومنسوباتها إلى الذات الإلهية، فموضوعه الذات الأحدية ونعوتها الأزلية، وصفاتها السرمدية، ومسائله وكيفية صدور الكثرة عنها ورجوعها إليها، وبيان مظاهر الأسماء الإلهية والنعوت الربانية، وكيفية رجوع أهل الله تعالى إليه سبحانه وكيفية سلوكهم، ومجاهداتهم، ورياضاتهم، وبياتن نتيجة كل من الأعمال والاذكار في دار الدنيا والآخرة على وجه ثابت في نفس الأمر، ومباديه معرفة حده وغايته واصطلاحات القوم فيه»[1].

ويرى بعض الباحثين المعاصرين ان تعريفات الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين قد اتسمت بالطابع العملي والسلوكي ، ولا تشير إلى الجانب المتعلق بالمعرفة ، كما انها لم تعرف بعد علاقة الاتحاد والحلول او وحدة الوجود فيما بين الله والصوفي[2]، وهذا يدل بوضوح على براءة التصوف الحقيقي من هذه العقائد الباطلة الدخيلة.

وكما لاحظ ماسينيون[3] : «انها غرائب عقائدية وادبية لا شأن لها بتاريخ معاني هذا اللفظ» .

واظن ان السبب انها كانت ناتجة عن اذواق اهل القرنين الثالث والرابع الهجريين أي انها ليست من علوم المقال وانما هي نتائج الاحوال كما يقول القوم وهو الاصل في التصوف .

ويلاحظ أيضا أن التصوف ليس فرقة مستقلة كما يقول أحمد أمين، بل هو عبارة عن نزعة من النزعات الوجدانية ورغبة روحانية من مجموعة من الميولات الإنسانية تجاه حدث أو فعل أو شيء ما. ومن ثم، يمكن الحديث عن معتزلي صوفي وأشعري صوفي وفقيه صوفي ونصراني صوفي ومسيحي صوفي[4].

ويعرف ابن خلدون التصوف بقوله هو: «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة»[5].

ومن هنا، فالتصوف عرفان وجداني وشوق ذوقي ومجاهدة ربانية تقوم على الزهد في الحياة وترك الدنيا الواهمة.

المطلب الثاني : اشتقاق التصوف

تحيل الدلالات الاشتقاقية لكلمة التصوف على صوفياً، والصوفة، وأهل الصفة، والصوف، والصفاء أو الصفو.[6]

وهناك من يحصر التصوف بصوفة ، إذ كان هناك قوم من الجاهلية انقطعوا إلى العبادة والطواف حول الكعبة، ويعود نسبهم إلى الغوث بن مر الذي كان يعرف باسم صوفة أطلقته أمه عليه، لأنها لم يكن يعيش لها أولاد، فنذرت لئن رزقت بولد لتجعلن

(1) العاملي ،بهاء الدين (ت1031هـ)، الكشكول ، تح: الطاهر احمد الزاوي ، دار احياء الكتب العربية ، 1380هـ / 1961م ، 2/ 393 .

(2) بدوي ، عبدالرحمن ، تاريخ التصوف الاسلامي منذ البداية حتى نخاية القرن الثاني ، وكالة المطبوعات ، بلا. ت ، ص18 .

(3) ماسنيون ، بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الاسلامي ، ص156 .

(4) أمين ، احمد ، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 5، 1969، مج/ 150 .

(5) ابن خلدون: المقدمة ، ص: 467 .

(6) الفيروز ابادي ، محمد بن يعقوب (ت718هـ)، القاموس المحيط،المؤسسة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، بلا. ت) ، 3/ 164 ؛ الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت 1205 هـ) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية ، (القاهرة ، 1889م) .

برأسه صوفة وتهبه للكعبة فولدت الغوث، وعرف باسم صوفة وظلت الصفة عالقة بأولاده من بعده[1].

وهذا الرأي فيه تكلف وتصنع، ولا يمكن الأخذ به دليلاً على اشتقاق التصوف من الصوفة.

وهناك من ربط التسمية بزهد الرسول ﷺ وورع أصحابه ﷺ، إذ كان النبي يلبس الصوف كما ورد في قول أنس فيما رواه ابن ماجة أن الرسول ﷺ» أكل خشنا ولبس خشنا، لبس الصوف واحتذى المخصوف»[2] بيد أن هذا ليس دليلا قاطعا على ارتباط التصوف بحياة النبي ﷺ وتقشفه في الحياة وزهد صحابته، لأن الرسول ﷺ كان يلبس الصوف وغير الصوف، وكان يدعو كذلك إلى الإقبال على الحياة والتزين بكل ما يحقق الجمال للإنسان ويريحه ويوفر له السعادة الدنيوية والأخروية، الا لبس الحرير الممنوع شرعا ، وهذا الحكم ينطبق على حياة صحابته رضوان الله عليهم.

وقيل: إن كلمة التصوف تشير إلى أهل الصفة من الفقراء الزهاد المهاجرين الذين كانوا يسكنون صفة المسجد في المدينة.[3]

وكثير من الصحابة كانوا يلبسون الصوف، فالحسن البصري يقول: «أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف».[4]

والحقيقة ان لبس الصوف ليس دائما يدل على التقوى والصلاح في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كان الكثير من الناس يلبسون الصوف ليقال لهم بأنهم أتقياء ورعون، ولكنهم في الجوهر لا علاقة لهم بذلك.

ويورد ابن عبد ربه صاحب (**العقد الفريد**)[5] بيتين قالهما الشاعر محمود الوراق في هؤلاء المتصوفة:

تصوف كي يقال له أمين
وما يعني التصوف والأمانة
ولم يرد الإله به ولكن
أراد به الطريق إلى الخيانة

ويبدو لنا أن ربط التصوف بالصوف ربط مقبول يستسيغه العقل والمنطق وتقبله القرائن التاريخية واللغوية وذلك لرفضه اولا ولخشونته وتحمله وطول عمره ، فهو لباس الفقراء دوما لهذا كان حتى الرهبان النصرانيون الصوفيون يلبسون الصوف في أديرتهم وكنائسهم.

وهناك من قال بأن التصوف يرتبط أشد الارتباط بالصفاء والصفو، فالمتصوفة ليس لهم من شغل سوى تصفية قلوبهم من أدران الجسد وشهوات الحياة قصد تحقيق الصفو الروحاني (6).

ويقول أحمد أمين في كتابه (**ظهر الإسلام**): «وقد اختلف الناس في نسبة الكلمة هل هي من الصفة، أو من الصفاء، أو من صوفيا وهي باليونانية بمعنى الحكمة. أو من الصوف ونحن نرجح أنها نسبة إلى الصوف لأنهم في أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشانا وزهادة، كما نرجح أنها كانت ترتكن في أول أمرها على أساس

(1) ابن الجوزي. ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي.(ت 597هـ). ، تلبيس ابليس بيروت. دار الفكر والطباعة والنشر والتوزيع. 1995 ، ص161-162 .

(2) ابن ماجة ، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (ت275هـ) ، سنن، تح : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، (بيروت ، بلا . ت)3/ 458 .

(3) فروخ، عمر ، التصوف في الاسلام ، بيروت ، 1974م، ص21 .

(4) حلية الاولياء ، 2/ 134.

(5) ابن عبد ربه الاندلسي، ابي عمر بن محمد (ت328 هـ) ، العقد الفريد، تقديم: خليل شرف الدين،دار مكتبة الهلال ، (بيروت ، 1968) 1/ 273 .

(6) أمين، ظهر الإسلام ، مج1 / 150 .

إسلامي».[1]

والدليل على ارتباط التصوف بالصوف قصة محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم الباهلي عامل خراسان، فقد دخل محمد على قتيبة وعليه مدرعة صوف خشنة وربما بالية فقال له قتيبة: « ما يدعوك على لباس هذه؟ فسكت لم يحر جوابا، فقال له قتيبة فيما يشبه الغضب: أكلمك فلا تجيبني؟ فأجاب محمد في خشوع وهدوء: أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي، أو أقول فقرا فأشكو ربي»[2] .

وهذا يبين لنا مدى ارتباط التصوف بالصوف، وهذا هو نفس رأي ابن خلدون الذي قال: «قلت والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب على لبس الصوف»[3].

وأول صوفي استحق لقب «صوفي» هو أبو هاشم فقد توفي سنة 150هـ، فقد كان يعرف بأبي هاشم الصوفي وكان ذلك في القرن الثاني الهجري، بيد أن المستشرق ماسينيون يعتبر عبدك الصوفي أول من لقب بلفظ صوفي وقد توفي في210 هـ[4].

المطلب الثالث : مواضيع التصوف

تنحصر مواضيع التصوف حسب قول ابن خلدون في أربعة أغراض أساسية[5] :

1. المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما ويترقى منه إلى غيره،
2. الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل: الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الأكوان في صدورها عن موجودها وتكونها،
3. التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات،
4. ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات تستشكل ظواهرها فمنكر ومحسن ومتأول.

المطلب الرابع : نشأة التصوف

يقوم الامام القشيري « أن المسلمين بعد رسول اللهّ ﷺ: لم يتسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم، سوى صحبة رسول اللهّ ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة »[6]. كانت نسبة الصلاح والصالحين في زمن رسول الله ﷺ وأصحابه لا يكون لشئ غير الاسلام والايمان فيقال مسلم ، ومؤمن، ثم اطلق على الذي صحبه صحابي ، ثم اطلق عليهم اسم زاهد وعابد ، ثم نشأ اقوام تعلقوا بالزهد والتعبد وتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا طريقة نفروا بها تنسب الى الزهد ثم ارتقت الى التصوف ، وأخلاقاً تخلقوا بها[7] .

ولَّما أدركهم أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة: التابعين ورأوا في ذلك أشرف سِمة. ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين. ثم اختلف الناس،

(1) أمين، ظهر الإسلام ، مج1 / 150 .
(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/ 225 – 226 .
(3) ابن خلدون، المقدمة، ص467 .
(4) علي ، محمد كرد ، الاسلام والحضارة العربية، (القاهرة، 1968) ، 2/ 31 .
(5) ابن خلدون، المقدمة ، ص474 .
(6) القشيري، الامام عبدالكريم بن هوازن (ت465هـ)، الرسالة القشيرية ، ، القاهرة ، بلا.ت ، ص12. ينظر: حاجي خليفة ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، (طهران ، 1387هـ) ، مج1، ص414 .
(7) المنوفي ، محمود ابو الفيض، معالم الطريق الى الله بين الشريعة والطريقة والحقيقة على ضوء نور الاسلام والايمان والاحسان، دار العهد الجديد ، بلا. ت ، ص171 .

وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس مِمَّن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزّهاد والعُباد.ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعوا أن فيهم زهاداً.فانفرد خواصُّ أهل السُّنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الفعلة باسم التصوف.واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[1].

يذكر لنا القرطبي انه : « كتب ابن منبه إلى مكحول إنك امرؤ قد أصبت فيما ظهر من علم الإسلام شرفا فاطلب بما بطن علم الإسلام عند الله محبة وزلفى واعلم أن احدى المحبتين سوف تمنع منك الأخرى»[2] ، كذلك نقل لنا ان الحسن البصري قال : «يبعث الله لهذا العلم اقواما يطلبونه ولا يطلبونه حسبه وليس لهم فيه نيه يبعثهم الله في طلبه كيلا يضيع العلم»[3]. وكانت الاحكام الشرعية احكام تلقى في صدور الرجال لا فرق بين عباداتها ومعاملاتها وعقائدها، ثم تحدث الناس في الامور الدينية على نظام علمي ، ونشأ التدوين فكان أول ما توجهت اليه الهمم وانصرفت اليه الافكار هو علم الشريعة بمعنى الاحكام العملية حتى حسب الناس ان الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو غاية الدين ، ثم توجهت همم العلماء الى تدوين السنن وتدوين العلوم المستنبطة منها ، ثم دونت العلوم بشكل تخصصي ، وهناك تطور معنى التصوف ووضع له اللفظ اولاً وادى هذا الطموح الى نشأة علم ديني الى جانب العلم الفقهي ، وقد عرف ان نشأة التصوف كانت بالبصرة ، وانه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ولهم فيها اجتهاد، وكما اشتهر في الكوفة من يسلك طريق الفقه والعلم ولهم فيها اجتهاد ، وطريقتهم مقيداً بلباس الصوف[4]. ولقد كان الحسن البصري اول من انتهج سبيل هذا العلم حيث يذكر صاحب كتاب قوت القلوب ما نصه: «وقد كان الحسن البصري أحد المذكرين وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد في بيته مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السجستاني ومحمد بن واسع وفرقد السنجي وعبد الواحد بن زيد فيقول: هاتوا انشروا والنور فيتكلم عليهم في هذا العلم من علم اليقين والقدرة في خواطر القلوب وفساد الأعمال ووسواس النفوس»[5]، مما تقدم تبين ان البصرة هي المنطلق واول مدرسة للتصوف وان اول من نطق بهذا العلم الامام الحسن البصري رحمه الله. ومعروف ان الحسن البصري يعد من كبار التابعين وقد التقى بعشرات الصحابة الكرام .

المطلب الخامس : أهمية التصوف

لولا تلك النفحات الصادقة التي تستاقها الامة من الصوفية لطغت المادة على جوهر الحياة ولأندثرت معالمها، ولخيم على الكون صقيع الجمود الروحي، ومن المؤسف جدا ان نرى هذه النزعة الالهية السامية التي نبعت من انوار الاسلام الطاهر قد ضاعت في غمار النسيان ، ولم يبق الا تلك الاعمال الظاهرة الغريبة التي يأباها العقل والدين والمنطق السليم ، حتى اضحت تلك الفئة المتخاذلة

(1) المنوفي ، معالم الطريق ، ص171 .
(2) القرطبي ابو عبدالله محمد بن احمد ، جامع بيان العلم وفضله، (بيروت ، 1952) ، ج2/ 7 .
(3) القرطبي ، جامع بيان العلم وفضله، ج2/ 7 .
(4) ابن تيمية، تقي الدين احمد بن عبدالحليم (ت 728هـ)، الصوفية والفقراء ، تعليق محمد رشيد رضا، طبع مطبعة المنار، مصر، بلا.ت ، ص13-17 .
(5) المكي، الشيخ ابي طالب محمد بن ابي الحسن علي بن عباس المكي (ت386هـ)، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، دار الفكر ، مج1/ 149 .

المتكاسلة التي تقول عن نفسها انها ورثة لطريق التصوف وتسمي نفسها متصوفة، نمر بها ونسمع عنها في التكايا ، وهي تعيش عالة على المجتمع ، نقطة سوداء في صفحة الطريق الى الله ، بعد ان ماتت المعاني فيها واصبحت اجساما متخومة ليس الا ، فأين هؤلاء من اقوال اهل الطريق الصادقين الذين وصفوا المعالم الرئيسة للطريق .

يقول الامام الغزالي: «إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها ، وهي أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟!»[1].

والجنيد البغدادي يقول: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع؛ وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات. [2]

وللصوفية ولاسيما الطرق الصوفية المنتظمة ، دور هائل في نشر الدعوة الاسلامية في خارج دار الاسلام ونأخذ مثلاً على ذلك ما حدث في الهند فأن الاسلام هناك لم ينتشر بواسطة الحروب ، بل بفضل الصوفية والطرق الصوفية الكبرى لان التوفيق الاجتماعي بين الظافرين والمقهورين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطالبون ويقرضون ولا يأملون شيئاً ، وقد كان للتصوف الاسلامي في الهند الفضل في المصالحة بين الطوائف[3] .

كما وان الامر كذلك بالنسبة لافريقيا كدول السنغال ومالي والنيجير وغينيا وغانا ونيجيريا وتشاد انما يرجع الشطر الاكبر من الفضل فيه الى الطرق الصوفية فكانت الزويا والرباطات التي اسسها شيوخ الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الاسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الافريقية[4]. ومرد هذا خصوصا الى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد وعيشهم بين العامة والفقراء مما ابدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى والصلاح[5].

المبحث الثاني :
مدارس التصوف في العراق
ودورها في نشر الاسلام في المشرق

يعد التصوف جانباً روحياً عظيما مسانداً للعلوم الاسلامية الاخرى ، وكذلك يعد في تاريخ الفكر العربي الاسلامي فرع من الفلسفة الدينية ، اساسه شوق النفس الانسانية الى الاتصال بالله ، واهل التصوف جماعة من المؤمنين دفعهم الزهد في الدنيا الى التأمل في هذا الشوق الطبيعي في الانسان الى الاتصال بخالقه[6] ، وازاء ذلك فكان لابد من ظهوره بصورة اكثر تنظيما من الحالات

(1) المنقذ من الظلال ، ص36 .
(2) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص20 .
(3) ماسنيون ، تاريخ التصوف ،ص86-87 .
(4) بدوي ، تاريخ التصوف الاسلامي ، ص25 .
(5) ماسنيون ، تاريخ التصوف ، ص15 .
(6) الطيباوي ، عبداللطيف ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام ، دار الاندلس ، 1979) ، ص225 .

الفردية التي صاحبت بداياته الاولى لذلك ظهر في صورة مدارس وفيما يأتي استعراض لكيفية بداياتها وكيف ساهمت في نشر الدين الاسلامي في المشرق الاسلامي .

أولاً : مدرسة البصرة

تعد مدرسة البصرة التي اسسها الحسن البصري رحمه الله من اوائل مدارس الصوفية في التاريخ الاسلامي ، وقد كانت هذه المدرسة في اول أمرها تعتمد طابع الزهد والتجريد والبعد عن الدنيا وملذاتها وكبح هوى النفس الامارة وسوقها في طريق التزكية الروحية ، ولما كان عصر الامام الحسن البصري رحمه الله قريبا لعصر الصحابة كان من الطبيعي ان يلتزم النهج الذي انتهجه الصحابة في معرفة الله وقد كان – كما تقدم – وقد انضم الى هذه المدرسة اتباع كثار كان لهم دور بارز في نشر تعاليم هذه المدرسة الروحية في آفاق المشرق بل تعدت الى غربه ، ولابد اولاً من معرفة سيرة حياة شيخ هذه المدرسة والقاء الضوء يسيراً على اهم مناقبه وتعاليمه ومن ثم نعرض لأبرز أعلام هذه المدرسة الروحية .

هو الامام الحسن البصري ولد بالبصرة سنة 21 هـ ، ويكنى أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ، وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة، رضي الله عنها، ثديها تعلله به إلى أن تجيء أمه، فدر عليه ثديها فشربه.[1]

فهو ابن مسلمة بالرضاعة ولا يخفى ما لهذه الميزة فضيلة عظيمة ، ومعروف ان لحليب الام اثراً فاعلاً في نشأة الانسان ، ولايخفى ان حليب الزوجة هو امتداد واثر للزوج ، ومن هنا تأتي هذه الفضيلة التي خص بها الامام الحسن البصري رحمه الله .

وكان رحمه الله قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق الا له وحده [2] ويذكر ابن الجوزي [3] انه : «بكى الحسن فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أخاف أن يطرحني غدا في النار ولا يبالي».

وذكر صاحب كتاب (**حلية الأولياء**) [4] ما نصه: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين؛ فمنهم الحسن بن أبي الحسن فما رأينا أحداً من الناس كان أطول حزناً منه، ما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة، ثم قال: نضحك ولا ندري لعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئاً، ويحك يا ابن آدم لك بمحاربة الله طاقة؟ إنه من عصي الله فقد حاربه. والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب، ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيت أقواماً يمشي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عز وجل فيتصدق

(1) ترجمة الحسن البصري في ابن سعد ، محمد بن منيع (ت 230هـ) ، الطبقات الكبرى ، تقديم: احسان عباس، دار صادر، (بيروت ، بلا. ت) 7/ 16 ؛ الذهبي. شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان. (ت 748هـ)، تذكرة الحفاظ. مطبعة السعادة القاهرة . 1354 ،ج1، 527 .

(2) بيومي ، مصلح سيد ، الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد ، دار الشباب ، القاهرة ، بلا.ت ، ص350.

(3) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، تحقيق وتعليق : محمود فاخوري ، تخريج احاديثه : محمد دواس قلعه جي ، مطبعة النهضة الجديدة ، القاهرة ، 1390/ 1970م ، 2/ 313 .

(4) الاصفهاني ، 2/ 34 .

ببعضه، وإن كان هو أحوج ممن تصدق به عليه.

ويشير صاحب كتاب (**صفوة الصفوة**) ان الحسن قال: «إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا. ما لي ولهذا؟ والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله. إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم. إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه».[1].

وكان الحسن البصري جامعا عالما عاليا رفيعا ثقة مأمونا عابدا ناسكا كبير العلم فصيحا جميلا وسيما وكان ما أسند من حديثه وروى عمن سمع منه فحسن حجة وما أرسل من الحديث فليس بحجة وقدم مكة فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فحدثهم وكان فيمن أتاه مجاهد وعطاء وطاؤوس وعمرو بن شعيب فقالوا أو قال بعضهم لم نر مثل هذا قط»[2]، توفي رحمه الله في البصرة سنة عشر ومائة [3].

ومن ضمن مدرسة البصرة ومن ضمن اساطينها ايوب السختياني «ويكنى أبا بكر مولى لعنزة واسم أبي تميمة كيسان وكان أيوب ثقة ثبتا في الحديث جامعا عدلا ورعا كثير العلم حجة أخبرنا عارم بن الفضل قال حدثنا حماد بن زيد قال ولد أيوب قبل الجارف بسنة وقال غير عارم وكان الجارف سنة سبع وثمانين»[4].

ويذكر لنا ابن الجوزي[5] ان مالك بن أنس يقول: كنا ندخل على أيوب السختياني فإذا ذكرنا له حديث رسول الله بكى حتى نرحمه.

ويشير ايضاً ابن الجوزي[6] ان: «أيوب السختياني يقول: لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان: بالعفة عما في أيدي الناس والتجاوز عما يكون منهم». وقد: «آذى رجل أيوب السختياني وأصحابه أذى شديدا. فلما تفرقوا قال أيوب: إني لأرحمه أنا نفارقه وخلقه معه». وذكر عنه «أيوب لا ينصرف عن سوقه إلا معه شيء يحمله لعياله حتى رأيت قارورة الدهن بيده يحملها. فقلت له في ذلك فقال: إني سمعت الحسن يقول: إن المؤمن أخذ عن الله عز وجل أدبا حسنا فإذا أوسع عليه أوسع وإذا أمسك عنه أمسك.

ويذكر الاصفهاني في حليته[7]: «حدثنا حماد بن زيد، قال: غدا على ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة، قال: فقال: إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر في النوم. فقلت لهما: ما جاء بكما؟ قالا: جئنا نصلي على أيوب السختياني، قال: ولم يكن علم بموته، فقلت له: قد مات أيوب البارحة» .

ومن أساتذة مدرسة البصرة في التصوف مالك بن دينار ، حيث تشير النصوص التاريخية الى مكانته بين العلماء «ويكنى أبو يحيى مالك بن دينار البصري، وهو من موالي بني سامة بن لؤي

(1) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 2/ 313 .
(2) ابن سعد ،طبقات ،7/ 157-158 .
(3) ابن خلكان. ابو العباس شمس الدين (ت 681هـ) ، وفيات الاعيان. مكتبة النهضة. القاهرة. 2، 1948/ 72.
(4) ابن سعد ، طبقات ، 7/ 246 .
(5) صفوة الصفوة 3/ 294 .
(6) الصفوة 3/ 394-395 .
(7) حلية الاولياء 3/ 5 .

القرشي، كان عالما زاهدا كثير الورع قنوعا لا يأكل إلا من كسبه، وكان يكتب المصاحف بالأجرة»[1].

قال الذهبي[2] عن مالك بن دينار: «علم من العلماء الابرار ، معدود في ثقات التابعين ومن اعيان كتبة المصاحف ولد في ايام ابن عباس رضي الله عنه».

ومن أقواله : «لم يبق من روح الدنيا الا ثلاثة : لقاء الاخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه»[3].

وقال مالك بن دينار : «إذا رأيت قساوة في قلبك ، وضعفاً في بدنك ، وحرماناً في رزقك ، فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك»[4].

وكذلك من اقواله : اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضاً ولا ينهى بعضنا بعضاً ولا يذرنا الله على هذا فليت شعري أي عذاب الله ينزل؟.([5]) ومن اقواله ايضاً: «خرج اهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا اطيب شيء فيها ، قالوا وما هو يا أبى يحيى؟ قال معرفة الله تعالى»[6].

ويذكر انه قال : لقد هممت أن آمر إن مت فأغل فأدفع إلى ربي مغلولاً كما يدفع العبد الآبق إلى مولاه. لذلك في مرضه الذي مات فيه وهو يكيد بنفسه فرفع رأسه إلى السماء، ثم قال: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لفرج ولا لبطن[7].

وبعد ترجمة سيرة ثلاثة اساطين من متصوفة البصرة لنطلع على ما كان في هذه المدرسة من الاسس الاولية والتي كانت منها الانطلاقة العظيمة لميدان التصوف .

اما دور مدرسة البصرة في نشر تعاليم التصوف في المشرق ، فان المتتبع لتاريخ هذه المدرسة العريقة يجد انها قد وصلت الى بلاد المشرق العربي والاسلامي فضلاً عن غربها ، وقد تأثرت بهذه المدرسة تأثيراً مباشراً ساعدت في ذلك عوامل المواقع الجغرافية فالشام والعراق على خط واحد كما هو معلوم .

ان الناظر في سلاسل الطرق الصوفية التي تبين اخذ رجل عن رجل بالسند سيرى ان معظم هذه السلاسل انما تتصل بالحسن البصري وهذا يدل بوضوح على مزية المدرسة البصرية وقدمها وآثرها المتمثل بشخص مؤسسها الامام الحسن البصري رحمه الله ، ومن الطبيعي ان هذه الطرق مجملها اعتمدت طابع الزهد والتجريد الذي انتهجه الحسن البصري رحمه الله ، كشرط اساسي للمنتمي لهذه المدرسة فشعارها ان صح التعبير ان حب الدنيا وحب الاخرة لا يجتمعان في قلب واحد .

واذا اردنا ان نعرف شروط هذه المدرسة يمكننا ان ننظر الى اقوال الحسن البصري التي كانت بمثابة الحجر الاساس لإنشاء هذه المدرسة يحثهم في ذلك على الزهد في الدنيا «والله لقد أدركت سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب،

(1) الاصفهاني، حلية الأولياء 2/ 357 ؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة 3/ 197 .

(2) الذهبي ، سير اعلام النبلاء، تح: شعيب الارنؤط وحسين الاسد، بيروت، 1401هـ/ 1981م، 5/ 362 .

(3) الشعراني، لابي المواهب عبدالوهاب بن احمد ، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الاخيار مطبعة البابي الحلبي واولاده، 1373هـ/ 1952م، 1/ 37 .

(4) الامام النووي ، محي الدين بن زكريا، الاربعين النووية، تح :عبدالقادر ارناؤوط ، مطبعة الملاح ، 1391هـ/ 1971م، 1/ 33 .

(5) الاصفهاني ، حلية الاولياء 1/ 368 .

(6) المنوفي ، جمهرة الاولياء واعلام اهل التصوف 2/ 187.

(7) الاصفهاني ، حلية الاولياء 1/ 368 .

ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه، ولقد رأيت أقواماً يمشي أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عز وجل فيتصدق ببعضه، وإن كان هو أحوج ممن تصدق به عليه».[1] ، الى غير ذلك من الاقوال التي اوردناها في ترجمته سلفاً كما بينا من خلال تعاليمه التربوية ان يحتقر الانسان نفسه وان ينظر الى عيوبه، ولا يبتعد عن الباحث ان هذا من نتاج احتقار الدنيا والزهد فيها .

اما بالنسبة لما اشرنا اليه من اثر هذه المدرسة الروحية على دول المشرق ففي بلاد الترك فمثلا فكل الطرق في هذه البلاد تعود سلاسلها الذهبية الى الامام الحسن البصري ومن اعظم هذه الطرق واكثرها انتشاراً الى يومنا هذه الطريقة النقشبندية وقد خرجت هذه الطريقة اعلام كان لهم قدم السبق لحيازة مقام الولاية والدعوة والارشاد منهم الامام الفاروقي والشيخ اسماعيل حقي البروسي ومؤيد الدين الجندي صاحب التأويلات النجمية والامام جلال الدين الرومي صاحب كتاب المثنوي [2].

اما بالنسبة للهند فقد اثرت كذلك هذه المدرسة تأثيراً مباشراً على دولها التي تولدت منها واخرجت اعلام كان لهم دور بارز في الحياة الدعوية والتجديدية فيها ، ومن هؤلاء غلام الدين رسول الهندي ، وقد سكن بغداد قادما من الهند ومات في بغداد ، وقد عرف بالزهد والتقوى والورع شأنه في ذلك شأن اتباع هذه المدرسة العريقة[3].

(1) الاصفهاني، حلية الاولياء ، 2/ 34 .
(2) النابلسي، عبدالغني، الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية، مطبعة عامر، استنابول، 1290هـ ، ص55.
(3) المدرس ، محمد عبدالكريم ، علماء شبه القاره الهندية، بغداد ، 1976 ص33 .

يقول الشيخ الندوي من بحث الصوفية في الهند وتأثيرها على المجتمع : «ان هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والاخلاص واتباع السنة والتوبة عن المعاصي والظلم والقسوة ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه وتزكية النفس واصلاحها ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والايثار وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه ، انهم كانوا يعضون الناس دائماً ، ويحاولون ان يلهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين الى رضاه ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغير الحال ...»[4].

اما في خراسان فقد كان لها أيضاً تأثيراً مباشراً يؤيد ذلك كثرة الاتباع الذين التزموا نهج التصوف وهم لكثرتهم قد فاقوا الحصر، فإبراهيم بن ادهم اشهر من نار على علم يكنى «أبوإسحاق إبراهيم بن منصور بن زيد بن جابر العجلي ويقال التميمي؛ أصله من بلخ وكان من أولاد الملوك، روى عن جماعة من التابعين كأبي إسحاق السبيعي وأبي حازم وقتادة ومالك بن دينار والأعمش»[5] وكذلك الامام الفضيل بن عياض يكنى «أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الطالقاني الأصل، الفنديني ، الزاهد المشهور أحد رجال الطريقة»[6].

اما بالنسبة لبلاد الشام فشيوخ مدارسها تتشرف بالانتماء الى مدرسة الحسن البصري وتلتزم تعاليمه وشروطه فما من طريقة بالشام على

(4) الندوي ، ابي الحسن ، المسلمون في الهند ، ص140 .
(5) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 1 / 32 .
(6) ابن الجوزي، صفة الصفوة 2/ 134 ؛ الاصفهاني ، حلية الأولياء، 8/ 84 .

اختلاف مسالكها وتعدد مشاربها الا وتكون نهايتها الى الامام الحسن البصري الى الامام علي بن ابي طالب ﷺ بالسند المعروف[1]، ومن ابرز الطرق الصوفية بالشام الطريقة الصيادية وشيخها ابو الهدى الصياد[2].

ولم يقتصر دور هذه المدرسة على تعاليم الزهد ونبذ الدنيا بل كانت تعتمد طريق العلم فروادها كما هو معلوم من طلاب وشيوخ العلم في الغالب فهم اهل حديث والفقه والاصول والمتتبع لتراجم اعلام الامة بصورة عامة يجد ان اغلبهم قد اعتمد وسلك الطريق على يد مشايخ تنتهي طرقهم بانتسابها الى الامام الحسن البصري[3].

ومن النادر جدا ان عالماً من القرون الاولى لا تجد له سنداً من هذه الطرق الشريفة ، وهذا يدل على التسليم الواقعي لهذه الطرق الشرعية والاعتراف بأهميتها فهي لا تختلف عن الانتساب العقائدي والفقهي الذي سار عليه السلف .

ثانياً : مدرسة الكوفة

للكوفة منزلة عظيمة ايام كان الاسلام عزيزاً ، والخلافة قائمة ، فما من علم من العلوم الشريعية وغير الشريعية الا وكانت للكوفة فيها السبق ، فلا غلو ان يكون لها دوراً بارزاً في نشأة التصوف وظهور حركته بصورة جلية ، واننا اذا اردنا الحديث عن هذه المدرسة العريقة ومن ثم بيان آثرها على دول المشرق كافة يقتضي الوقوف على تراجم رجال هذه المدرسة العريقة ، ويأتي في مقدمتهم الامام داود بن نصير الطائي ولد بعد المئة بسنوات. يكنى ابى سليمان ، سمع الحديث وتفقه ثم اشتغل بالتعبد ، كان داود الطائي يجالس أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة: يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها. قال داود: فأي شيء بقي؟ قال: بقي العمل به. قال: فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة، فقلت لها: حتى تجلسي معهم فلا تجيبي في مسئلة. قال: فكان يجالسهم سنة قبل أن يعتزل. قال: فكانت المسئلة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء فلا أجيب فيها. قال: فاعتزلتهم بعد.»[4] «قال سفيان بن عيينة: كان داود ممن فقه، ثم علم، ثم عمل، وكان يجالس أبا حنيفة، فحذف يوما إنسانا، فقال له أبو حنيفة: يا أبا سليمان ! طالت يدك، وطال لسانك، قال: ثم كان يختلف ولا يتكلم.[5]

ويشير صاحب الرسالة القشيرية ما نصه: «وقيل: إن داود الطائي، لما أراد أن يقعد في بيته اعتقد أن يحضر مجالس أبي حنيفة، رحمه الله، إذ كان تلميذاً له، ويقعد بين أقرانه من العلماء، ولا يتكلم في مسألة، فلما قوَّي نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة، قعد في بيته عند ذلك وآثر العزلة»[6].

وقال إسحاق السلولي: حدثتني أم سعيد، قالت: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل، لا يهدأ، وربما ترنم في السحر بالقرآن، فأرى أن جميع النعيم قد جمع في ترنمه، وكان لا يسرج عليه ، مات سنة اثنتين وستين

(1) ابن الملقن، طبقات الصوفية ، ص450 .
(2) ابو الهدى الصيادي ، قلادة الجواهر، بغداد ، 1984، ص3-4 .
(3) للتفاصيل يراجع كتاب الطرق الصوفية ، يونس ابراهيم السامرائي ، بغداد ، 1970 .
(4) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 3/ 131 ؛ الاصفهاني ، حلية الاولياء ، 17/ 341-342؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء ، 7/ 423 .
(5) الاصفهاني ، الحلية: 7 / 336 .
(6) القشيري ، ص57 .

ومئة، وقيل: سنة خمس وستين[1]. وله روايات في الحديث اذ يقول الاصفهاني[2]: «سند داود بن نصير الطائي عن جماعة من التابعين منهم: عبد الله بن عمير، وإسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وحميد الطويل. وأكثر روايته عن الأعمش أروى الناس، عن داود بن صعب بن المقدام. وروى عنه إسماعيل بن علية، وزافر بن سليمان» .

ومن ضمن مدرسة الكوفة سفيان الثوري ويكنى أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق [3] ولد سنة سبع وتسعين اتفاقا، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده،المحدث الصادق: سعيد بن مسروق الثوري، وكان والده من أصحاب الشعبي، وخيثمة بن عبدالرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين.[4]

يشار انه كان يقول: «لقد خفت الله خوفا عجبا لي، كيف لا أموت لكن لي أجل أنا بالغه، ولقد خفت الله خوفا وددت أنه خفف عني منه ما أخاف أن يذهب عقلي».[5] ومن اقواله التي ذكرها صاحب كتاب حلية الاولياء: « إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة». وقوله: «الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس، وأول الزهد في الناس زهدك في نفسك»[6] ، خرج سفيان الثورى من الكوفة الى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة ، وتوفي فيها سنة احدى وستين ومائة[7] .

مما تقدم بينا ملامح عامة لمدرسة التصوف وبعض شخصيات التصوف في الكوفة لكي نقف على اثر هذه المدرسة فيما بعد على المشرق العربي الاسلامي .

اما أثر مدرسة الكوفة على المشرق فأن شأنها بالتأثير على بلدان المشرق شأن مدرسة البصرة اذ ان سند الامام داود الطائي يتصل بالإمام الحسن البصري ، وقد اخذ اتباع هؤلاء وهولاء بعضهم من بعض حتى صاروا كطريقة واحدة وان تعددت مسالكها ومناهجها .ومدرسة الكوفة فيها من المميزات ابرزها الحث على طلب علم الفقه وعلم الحلال والحرام وعلم الكلام فضلاً عن الزهد .

اما بالنسبة لأثر هذه المدرسة في كل دول المشرق على الاطلاق ، اذ تعد هذه المدرسة – مدرسة الامام الطائي – من المدارس الوسطية من حيث عمر التصوف في القرنين الثاني والثالث ، وكانت بمثابة حلقة وصل بين المدرسة البصرية والمدرسة البغدادية من حيث انها اعتمدت كافة العلوم الشرعية وحثت على الزهد والتقوى كما تقدم .

ومن ابرز تلامذة المدرسة الكوفية الذين انتهجوا منهجها وانتهت لهم السلاسل الى داود الطائي ، الامام البارز عبدالكريم بن هوازن القشيري النيسابوري القشيري الامام الزاهد، القدوة، الاستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، المفسر، صاحب (**الرسالة**)[8].

وللقشيري كما ذكره السبكي[9] «ومن تصانيف الأستاذ التفسير الكبير وهو من أجود التفاسير وأوضحها والرسالة المشهورة المباركة التي قيل ما تكون في بيت وينكب والتحبير في التذكير وآداب الصوفية ولطائف الإشارات وكتاب الجواهر

(1) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، 7/ 434-435 .
(2) حلية الاولياء ، 7/ 349 .
(3) ابن سعد ، طبقات 6/ 371 .
(4) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، 7/ 230 .
(5) ابن الجوزي ، الصفوة 2/ 262 .
(6) الاصفهاني ، 3/ 179 .
(7) المنوفي ، جمهرة الاولياء ، 2/ 115 .
(8) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، 18/ 227 .
(9) السبكي ، طبقات الشافعية ، 5/ 99 .

وعيون الأجوبة في فنون الأسئلة وكتاب المناجاة وكتاب نكت أولي النهى وكتاب نحو القلوب الكبير وكتاب نحو القلوب الصغير وكتاب أحكام السماع وكتاب الأربعين في الحديث وقع لنا بالسماع المتصل وغير ذلك».

ومن أعلام هذه المدرسة ايضا ابو نصر عبدالرحيم بن عبدالكريم بن هوازن القشيري وقد اتبع اثر والده في طلب العلم وجمع بين طريق التجريد وطريق العلم[1].

ولعل من ابرز رجال الفكر والدعوة الى الله من المتأخرين ممن اتخذ الطريقة الصوفية التي تنتهي نسبتها الى الامام داود الطائي، ابو الحسن الندوي، وقد كان له دور كبير في نشر العلم والتصوف في البلاد الهندية

ويشير الندوي في كتابه المسلمون في الهند[2] «ان تأثير هذه المواعظ ، ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع ادى الى تعطيل تجارة الخمر ، وكساد سوقها في كلكتا ، وهي كبرى مدن الهند» ثم قال : «ان هذه الحالة كانت نتيجة اخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانيتهم، ان اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى» وفي ختام بحثه قال أيضاً: « لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية اشجار كثيرة وارفة الضلال في مئات من بلاد الهند ، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبة ، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة» وتحدث أيضاً الندوي في كتاب آخر بقوله : «انني اقول دائما : لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند وحضارتها وفلسفتها الاسلام»[3].

(1) الاسنوي ، طبقات الشافعية ، 2/ 157 .
(2) الندوي ، المسلمون في الهند ، ص140-146 .
(3) الندوي ، روائع اقبال ، ص7 .

وكذلك كان لهذه المدرسة اتباع في الشام ومن هؤلاء احمد بن علي القرطبي وقد جمع بين العلم والزهد والنقاء[4].

ان مدرسة الكوفة سبباً من الاسباب المهمة كان لها الدور الكبير في نشأة التصوف وانتشارها في المشرق العربي والاسلامي .

ثالثاً : مدرسة بغداد

لم تحظى مدينة مثل ما حظيت بغداد بكبار اهل التصوف واعلامه الذي يعود لهم الفضل في ابراز مدرسة بغداد الصوفية ونشأتها على مبادئ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتي كانت تعمل على بث الفضائل ومكارم الاخلاق وتجريد القلب لعبادة الله والرقي الى معارج الخير وتربية الروح تربية قائمة على صدى الحال وصفاء السريرة وسلامة الصدر من الوساوس وترهات الدنيا[5].

وقبل الحديث عن أثرها سأترجم نبذة بسيطة عن اعلام من مشايخ متصوفة بغداد لنرى نشأة هذه المدرسة وما قدمت من علم التصوف خدمة للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وتتمة لعلوم الاسلام .

ان من اوائل هذه المدرسة معروف الكرخي ويكنى أبو محفوظ البغدادي، واسم أبيه فيروز، وقيل: فيرزان، من الصابئة. وقيل: كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدب كان يقول له، قل: ثالث ثلاثة، فيقول معروف: بل هو الواحد، فيضربه، فيهرب، فكان والداه يقولان: ليته رجع، ثم إن أبويه أسلما[6].

(4) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، 4/ 323 .
(5) ابراهيم ، محمد جميل ، تاريخ متصوفة بغداد ، بغداد، بلا.ت ، ص3 .
(6) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 9 / 339 .

والحديث عن اسلامه يذكر لنا ابن الجوزي[1] بقوله: «يذكر ان اخاه عيسى قال كنت أنا واخي معروف في الكتاب وكنا نصارى وكان المعلم يعلم الصبيان أب وابن ، فيصيح أخي معروف: أحد أحد، فيضربه المعلم على ذلك ضرباً شديداً حتى ضربه يوماً ضرباًعظيماً فهرب على وجهه. فكانت أمي تبكي وتقول لئن رد الله علي ابني معروفا لاتبعنه على أي دين كان فقدم عليها معروف بعد سنين كثيرة فقالت له يا بني على أي دين أنت قال على دين الإسلام قالت اشهد ان لا اله إلا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله. فأسلمت أمي وأسلمنا كلنا.

ومن بعض سيرته ذكر صاحب كتاب صفوة الصفوة ما نصه [2] : «كان معروف الكرخي قاعدا دجلة ببغداد إذ مر بنا احداث في زورق يضربون الملاهي ويشربون فقال له أصحابه اما ترى ان هؤلاء في هذا الماء يعصون الله ادع عليهم فرفع يده إلى السماء وقال الهي وسيدي أسألك ان تفرحهم في الجنة كما فرحتهم في الدنيا فقال له أصحابه إنما قلنا لك ادع الله عليهم لم نقل لك ادع الله لهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم بشيء» .

وقال معروف الكرخي: التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق.[3] وقوله لرجل: توكل على الله حتى يكون هو معلمك وأنيسك وموضع شكواك، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقنك، واعلم أن الشفاء من كل بلاء نزل بك كتمانه، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يمنعونك ولا يعطونك.[4]، وقال: «كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله تعالى»[5]. قيل لمعروف الكرخي في علته: أوص، فقال: إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلت إليها عريانا. توفي معروف الكرخي سنة مائتين للهجرة في بغداد[6] .

ومن تلامذة الكرخي السري بن المغلس السقطي ويعد من متصوفة بغداد واعلامها بكنى ابو الحسن ولد في حدود الستين ومئة.[7] ، يذكر الاصفهاني[8] انه «العلم المنشور والحكم المذكور شديد الهوى حميد السعي ذو القلب التقي والورع الخفي عن نفسه راحل ولحكم ربه نازل أبو الحسن السري بن المغلس السقطي خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه».

ويحكى عن السريِّ أنه قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرّة. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: وقع ببغداد حريق، فاستقبلني رجل، فقال لي: نجا حانوتك. فقلت: الحمد لله. فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين»[9]، ومن اقواله رحمه الله :«ما رأيت شيئاً أحبط للأعمال ، ولا أفسد للقلوب ، ولا أسرع في هلاك العبد ولا أدوم للأحزان ولا أقرب للمقت ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب والرياسة من قلة حساب العبد لنفسه ، ونظره في عيوب الناس لاسيما ان كان مشهوراً معروفاً بالعبادة وامتد له الصيت حتى بلغ من الثناء مالم يكن يؤمله

(1) ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ، 2/ 318-319 .
(2) المصدر نفسه ، 2/ 72 .
(3) القشيري ، الرسالة القشيرية، ص 127 .
(4) الاصفهاني ، حلية الاولياء ، 4/ 27 .
(5) النووي ، الاربعين النووية ، 1/ 33 .
(6) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 2/ 324 .
(7) المصدر نفسه ، 2/ 371 .
(8) الاصفهاني ، حلية الاولياء، 10/ 117 .
(9) القشيري ، الرسالة القشيرية، ص17 .

وتربص في الاماكن الخفية بنفسه وسراديب الهوى وقبل تجريحه في الناس ومدحه فيهم ، وقيل له ان العابد الفلاني يعظم فلاناً ويعتقده والامير الفلاني لا يقدم احدى على فلان من الفقراء واطبقت اهل بلده على اعتقاده فقال انه يهلك مع الهالكين»[1].

توفي السري في يوم الثلاثاء لست خلون من رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين[2].

ومن أعلام التصوف في بغداد الجنيد البغدادي ويكنى أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور؛ أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق، وكان شيخ وقته وفريد عصره، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون، وتفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنهما، وقيل: بل كان فقيها على مذهب سفيان الثوري رضي الله عنه.[3]

قال الجنيد كنت بين يدي سري السقطي العب وانا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي يا غلام ما الشكر فقلت ألا تعصي الله بنعمه فقال لي اخشى ان يكون حظك من الله لسانك قال الجنيد فلا ازال ابكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي. [4] ، كان يقول الجنيد البغدادي: «علمنا مضبوط الكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به»[5].

ومن أقواله: «الطريق إلى الله مسدود على خلق الله عز و جل إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ والتابعين لسنته كما قال الله عز و جل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾» ، وسأله رجل: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: «وبة تحل الإصرار وخوف يزيل الغرة ورجاء مزعج إلى طريق الخيرات ومراقبة الله في خواطر القلوب»[6].

وتوفي يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين، وقيل: سنة ثمان وتسعين آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد، ودفن يوم السبت بالشونيزية عند خاله سري السقطي، رضي الله عنهما. وكان عند موته – رحمه الله تعالى – قد ختم القرآن الكريم ثم ابتدأ في البقرة فقرأ سبعين آية، ثم مات.[7]

واستمرت مدرسة بغداد الصوفية بالاستمرار بعد وفاة كبيرها الجنيد البغدادي واصبح يقصدها من كل حدب وصوب من بلاد الاسلام القاصدون لطلب العلم فيها.

اما اثر مدرسة بغداد الصوفية على المشرق العربي والاسلامي ، فبغداد تمتعت بخصوصية مهمة هي كونها عاصمة العراق العريق في الحضارة والعلم والادب ، فاكتسبت من تلك الخصوصية ما جعلها مؤهلة لان تكون العاصمة بالمنظور العراقي ، وبالمنظور العربي والاسلامي ، ويعتمد الخطيب البغدادي على القرائن الدينية التي يستند اليها في بيان مكانة العراق العلمية والادبية والاخلاقية ، فيذكر قولاً للنبي الرسول محمد ﷺ عن سيدنا ابراهيم (عليه السلام) انه هم ان يدعو عليهم –أهل العراق– فأوحى الله تعالى اليه لا تفعل ، فأني جعلت خزائن علمي فيهم ، واسكنت الرحمة قلوبهم ، ويروي الخطيب مستكملاً خبره قال كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار اختر لي المنازل

(1) الشعراني ، الطبقات الكبرى ، 1/ 74–75 .
(2) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 2/ 385 .
(3) الاصفهاني ،حلية الأولياء، 10/ 255 الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي (ت463هـ) ، تاريخ بغداد ، المكتبة السلفية،(المدينة المنورة ، بلا. ت) 7/ 241 .
(4) ابن الجوزي ، صفوة الصفوة 2/ 385 .
(5) الاصفهاني ، حلية الاولياء 2/ 417 .
(6) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، 2/ 418 و 420 .
(7) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ،ج 1/ 375 .

قال فكتب يا أمير المؤمنين أنه بلغنا أن الأشياء اجتمعت فقال السخاء أريد اليمن فقال حسن الخلق أنا معك وقال الجفاء أريد الحجاز فقال الفقر وأنا معك وقال البأس أريد الشام فقال السيف وأنا معك وقال العلم أريد العراق فقال العقل وأنا معك وقال الغنى أريد مصر فقال الذل وأنا معك فاختر لنفسك قال فلما ورد الكتاب على عمر قال فالعراق إذا فالعراق « ويستكمل الخطيب البغدادي ان سيدنا عمر بن الخطاب : «قال أهل العراق كنز الإيمان وجمجمة العرب وهم رمح الله عز و جل يحرزون ثغورهم ويمدون الأمصار»[1].

لا ينكر ان للصوفية دور كبير في نشر الاسلام في ارجاء مختلفة من العالم الاسلامي سواء في المدن الكبرى ام في القرى والارياف[2] وما لبث التصوف ان أصبح مذهبا خاصاً وانتشر هذا المذهب انتشاراً سريعاً في القرنين الثاني والثالث للهجرة في ارجال العالم الاسلام منطلقاً من العراق الى بلاد الشام والشرق برمته ، وبدأ بانتشار واسع للطرق الصوفية في كافة انحاء العالم الاسلامي ، وتسعى هذه الطرق الى الوصول الى قلوب الناس ، وتعمل على تقريب القلوب الى الله عن طريق الادعية والاذكار وقد خصص الغزالي صفحات مطولة في كتابه احياء علوم الدين للذكر والسماع[3].

أما شيوخ التصوف البغدادي الذين كان لهم في اواخر القرن الخامس أثر واضح في تطور التصوف وانتشاره واستمراره عبر تلاميذهم أو رباطاتهم أو مدارسهم أو مصنفاتهم فقد كان أشهرهمً حجة الإسلام أبو حامد الغزالي وبالرغم من أنه لم يكن بغدادي المولد ولا الوفاة إلا ان الفترة التي قضاها أستاذاً لنظامية بغداد ثم اعتزاله التدريس بعدها وتصوفه وتصنيفه كتاب إحياء علوم الدين وغيره من المصنفات في التصوف، كان له أثر عميق في نشر التصوف، وبخاصة تصوف الفقهاء في الفترة اللاحقة[4] وقد اعتبره المستشرق بروكلمان «آخر مفكر ديني كبير في الإسلام»[5].

وتكاد رحلة ابن بطوطة (ت779هـ) في الربع الأول من القرن الثامن الهجري أن تكون كشفاً مفصلاً حول مدى انتشار التصوف و الزوايا و الطرق الصوفية في البلاد الكثيرة التي زارها، فهو طوال رحلته كان ينزل في الزوايا المقامة على طول الطريق وفي المدن والقرى و الجبال والموانئ البحرية، ويلتقي بشيوخ تلك الزوايا ويصف احوالهم وأتباعهم وحرمتهم لدى الناس والأمراء،

(1) ابن الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، 1/ 25 . فعن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: «اللهم! بارك لنا في صاعنا ومدنا، وفي شامنا وفي يمننا وفي حجازنا»، فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله! وفي عراقنا! فأمسك النبي ﷺ عنه، فلما كان في اليوم الثاني قال مثل ذلك فقام إليه الرجل فقال: يا رسول الله! وفي عراقنا! فأمسك النبي ﷺ عنه، فلما كان في اليوم الثالث قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله! وفي عراقنا! فأمسك النبي ﷺ عنه، فولى الرجل وهو يبكي، فدعاه النبي ﷺ فقال: «أمن العراق أنت؟ « قال: نعم، قال: إن أبي إبراهيم عليه السلام هم أن يدعو عليهم، فأوحى الله إليه: لا تفعل، فإني جعلت خزائن علمي فيهم، وأسكنت الرحمة قلوبهم»: المتقي الهندي ، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق : بكري حياني – صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة، 1401هـ/ 1981م ، 14/ 98 .

(2) شاخت ، تراث الاسلام ، 2/ 256 .

(3) الغزالي، احياء علوم الدين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، بلا . ت 2،/ 266 وما بعدها.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 4، / 216 – 219؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،6/ 191؛ الاسنوي، طبقات الشافعية، 2/ 111 .

(5) بروكلمان، كارل،تاريخ الشعوب الاسلامية، نقله إلى العربية نبيه امين فارس، منير البعلبكي، دارالعلم للملايين بيروت،1968، ص 275 .

حتى انه وصف زاوية للصوفية في عاصمة الصين ، وذكر رجالات التصوف وأولياءه في دهلي (دلهي) في الهند ، وتكلم عن المكانة المرموقة للصوفية لدى سلطان بنجالة (البنغال) ، وأسهب في ذكر الزوايا والصوفية في البلاد التركمانية الرومية[1] .

ان مدى انتشار التصوف والزوايا والربط و المشايخ في مختلف البقاع التي زارها ابن بطوطة، والحرمة الكبيرة التي تمتع بها الصوفيون آنذاك، يؤكد ان التصوف عامة – وليس الطرق فحسب– لم يكن مجرد تيار اجتماعي عادي قامت به فئة اجتماعية دون أخرى، وإنما كان يسري في جنبات الأمة المسلمة في مختلف بقاعها، داخل بلاد الاسلام وخارجها، وانتسب إليه الناس من مختلف فئاتهم ورتبهم وأعمارهم وأصولهم، حتى كان جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس ومعيشتهم اليومية، فهو بالتالي، ضارب في جذور الأمة لا يزول بزوال الدول والقوى السياسية.[2]

لا ينحصر التصوف بالطرق الصوفية، ولم تكن الطرق إلا التعبير المنظم عن التصوف. وقد تمثل الأثر الاجتماعي الرئيسي للطرق، من حيث الدين، في تبسيط الممارسات الروحية الصوفية وجعلها في متناول مدارك عامة الناس على مستوى جماهيري واسع جداً ، ويرى بروكلمان أن الطرق الصوفية كان لها أثر واضح في تهذيب العامة، حيث خضعت حياتهم الدينية لتأثير مشايخ الطرق اكثر من خضوعها لتأثير الفقهاء الرسميين، كما رأى بروكلمان أن» الوجد» الصوفي كان له اثر في تنمية العاطفة الدينية[3] .

الخاتمة

مما تقدم كان الرواد الاوائل متمسكين بأصول الشريعة الاسلامية عموماً، وسار على هديهم تلاميذهم فيما بعد الا انه بمرور الزمن ابتعد بعض اتباع هذه الطرق عن الطريق الاول ، فالتصوف الإسلامي الحقيقي مبناه على الكتاب والسنة وعلى أحوال الرسول النبي العربي ﷺ وإن تعرجت مؤخرا تعاليم التصوف وتلونت بعض فروعه ألوانا عدة واتجهت تلك الفروع اتجاهات مختلفة بسبب المذاهب الموروثة للداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس وإسرائليين ومسحيين ولا سيما في عصر الترجمة الذي شجع عليه المأمون ومن بعده من الخلفاء العباسيين فترجم المسلمون كتباً كثيرة من التصوف الهندي واليوناني والفارسي وطمعت بعض فروع التصوف الإسلامي الخالص بما دخل عليها من النزعات الأفلاطونية الحديثة أو القديمة وبعض المذاهب الهندية والفارسية في التصوف كنظرية الحلول والاتحاد والتقمص والتناسخ وما إلى ذلك ، ومع ذلك ظل التصوف الإسلامي الصميم والذي مصدرة الكتاب والسنة قائما على حاله في صدور رجاله وفي الكتب الإسلامية كتواليف الحسن البصري والقشيري وأبي طالب المكي والكرخي والجنيد البغدادي والغزالي وغيرهم من اعلام التصوف .

وعلى اية حال، فان التصوف ولا سيما الاتجاهات المتطرفة والمغالية فيه ما هو إلا هروباً من الحياة التي ما خلق الله الانسان الا ليقف منها وجهاً لوجه، واعياً قوياً ، عزيز النفس ، مؤمناً بالله وبذاته ، مشاركاً في بناء المجتمع على قدر طاقته ، واننا معشر العرب المسلمين الآن أصبحنا في زمن لا يجيز لنا الفرار من معركة الحياة ، فالغلبة فيها

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج 2، ص 729 وما بعدها.
(2) شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام، ص 331 .
(3) بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية. ص 481–482.

للأقوياء المجاهدين من الرجال والنساء ، ولا ينبغي ان نأخذ من الصوفية الا صفاء الروح ، ونترك المعاني الاخرى ودلالاتها.[1]

وينبغي أن نجدد النظر للتصوف ونعيده إلى قوته وأثره لما للتصوف من قابلية للتحشيد وقيادة العامة.

المصادر

أولاً : المصادر الاولية

- ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، تحقيق وتعليق : محمود فاخوري ، تخريج احاديثه : محمد دواس قلعه جي ، مطبعة النهضة الجديدة ، القاهرة ، 1390/ 1970م.
- ابن الجوزي. ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي.(ت 597هـ). ، تلبيس ابليس بيروت. دار الفكر والطباعة والنشر والتوزيع. 1995 .
- ابن الملقن ،سراج الدين ابي حفص عمر بن علي (ت804هـ) ، طبقات الاولياء ، تح: نورالدين شريبة، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، 1393هـ / 1973م
- ابن تيمية، تقي الدين احمد بن عبدالحليم (ت 728 هـ) ، الصوفية والفقراء ، تعليق محمد رشيد رضا ، طبع مطبعة المنار ، مصر ، بلا.ت
- ابن خلدون ، محمد بن عبدالرحمن (ت808هـ) ، المقدمة ، دار الفكر، بيروت،
- ابن خلكان. ابو العباس شمس الدين (ت 681هـ)، وفيات الاعيان. مكتبة النهضة.القاهرة 1948،
- ابن سعد ، محمد بن منيع (ت 230هـ) ، الطبقات الكبرى ، تقديم: احسان عباس ، دار صادر ، (بيروت، بلا. ت) 7/ 16 ؛ الذهبي. شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان. (ت 748هـ)، تذكرة الحفاظ. مطبعة السعادة القاهرة . 1354 .
- ابن عبد ربه الاندلسي، ابي عمر بن محمد (ت328 هـ) ، العقد الفريد، تقديم: خليل شرف الدين،دار مكتبة الهلال ، (بيروت ، 1968) .
- ابن ماجة ، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني (ت275هـ) ، سنن، تح : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، (بيروت ، بلا . ت).
- الاصفهاني ، ابو نعيم احمد بن عبدالله (ت430هـ)، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، دار الكتاب ، (بيروت ، لبنان ، بلا.ت) .
- الجرجاني، الشريف علي بن محمد (ت618هـ) ، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، 1416هـ) .
- حاجي خليفة ، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، (طهران ، 1387هـ)
- الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي (ت463هـ)، تاريخ بغداد ، المكتبة السلفية، (المدينة المنورة ، بلا. ت).
- الذهبي ، سير اعلام النبلاء، تح: شعيب الارنؤط وحسين الاسد ، بيروت، 1401هـ / 1981م.
- الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت 1205 هـ) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، المطبعة الخيرية، (القاهرة ، 1889م) .
- السلمي ، عبدالرحمن ، طبقات الصوفية ، تح: نورالدين شريبة ، دار الكتاب النفيس ، ط2 ، 1406هـ / 1986م.
- الشعراني، لابي المواهب عبدالوهاب بن احمد ، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الاخيار مطبعة البابي الحلبي واولاده ، 1373هـ / 1952م
- الطوسي، لابي نصر السراج (ت378هـ) ، اللمع ، تحقيق وتقديم ، د. عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، مطبعة السعادة ، مصر 1380هـ/ 1960م .

(1) وداد سكاكيني : «التصوف تهجد وتعبد وفناء» مجلة العربي ، العدد الرابع ، (الكويت ، 1959) ، ص123 .

- الطيباوي ،عبداللطيف ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام ،دار الاندلس ، 1979) .
- العاملي ،بهاء الدين (ت1031هـ)، الكشكول ، تح : الطاهر احمد الزاوي ، دار احياء الكتب العربية ، 1380هـ / 1961م .
- الغزالي ،الامام ابي حامد (ت505هـ) ، المنقذ من الضلال ، مطبعة حسان ، القاهرة ، بلا. ت.
- الغزالي، احياء علوم الدين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، بلا . ت
- الفيروز ابادي ، محمد بن يعقوب (ت718هـ)، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، بلا. ت) .
- القرطبي ابو عبدالله محمد بن احمد،جامع بيان العلم وفضله، (بيروت ،1952)
- القشيري،الامام عبدالكريم بن هوازن (ت465هـ)، الرسالة القشيرية ، القاهرة ، بلا.ت ،
- المكي، الشيخ ابي طالب محمد بن ابي الحسن علي بن عباس المكي (ت386هـ)، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، دار الفكر.
- النووي ، محي الدين بن زكريا، الاربعين النووية، تح :عبدالقادر ارناؤوط ، مطبعة الملاح ، 1391هـ/ 1971م.

ثانياً :المراجع الثانوية

- ابراهيم ، محمد جميل ، تاريخ متصوفة بغداد ، بغداد، بلا.ت.
- امين ، احمد ، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 5، 1969
- بدوي ، عبدالرحمن ، تاريخ التصوف الاسلامي منذ البداية حتى نخاية القرن الثاني ، وكالة المطبوعات، بلا. ت .
- البرنسي، احمد بن عيسى ، قواعد التصوف على وجه مجمع بين الشريعة والحقيق ، تح : ابراهيم اليعقوبي ، ط1، (مصر ، 1968).
- بروكلمان، كارل،تاريخ الشعوب الاسلامية، نقله إلى العربية نبيه امين فارس، منير البعلبكي، دارالعلم للملايين بيروت،1968 .
- بيومي ، مصلح سيد ، الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد ، دار الشباب ، القاهرة ، بلا.ت.
- علي ، محمد كرد ، الاسلام والحضارة العربية، (القاهرة ، 1968).
- فروخ ، عمر ، التصوف في الاسلام ،، بيروت ، 1974م .
- ماسنيون ، بحث في نشأة المصطلح الفني للتصوف الاسلامي، بيروت ، بلا . ت
- المدرس ، محمد عبدالكريم ، علماء شبه القاره الهندية، بغداد ، 1976.
- المنجد في اللغة والأعلام، دار الشرق، بيروت، لبنان، الطبعة38، سنة 2000م
- المنوفي ، محمود ابو الفيض، معالم الطريق الى الله بين الشريعة والطريقة والحقيقة على ضوء نور الاسلام والايمان والاحسان، دار العهد الجديد ، بلا. ت
- النابلسي، عبدالغني ، الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية، مطبعة عامر ، استنابول ، 1290هـ .
- الندوي ، ابي الحسن ، المسلمون في الهند، دمشق ، بلا. ت .
- وداد سكاكيني :» التصوف تهجد وتعبد وفناء « مجلة العربي ، العدد الرابع ، (الكويت ، 1959).
- يونس ابراهيم السامرائي، الطرق الصوفية ، بغداد، 1970 .